

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 50

الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم

المبحث: سورة لقمان

التاريخ: 13\04\2022 م

كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني

ما زال الكلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

بعد تلك الجولة المتقدمة في مجمل معنى هذه الآية المباركة، ندخل بعض التفاصيل.

هذه الآية لها مرادف لها في أواخر سورة الكهف، وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا¹﴾.

تقريباً المعنى في هاتين الآيتين واحد، أن هذا البحر وهذا المحيط الذي لا ترى الباصرة حدوده، ولا يستطيع الإنسان أن يصل إلى عمقه، هذا الهائل الأمواج، الكثير الماء، لو تحول هذا الماء إلى مداد لنكتب فيه كلمات الله تبارك وتعالى لما استطعنا أن نستنفد تلك الكلمات، بل ينتهي هذا المداد والكلمات لا تنتهي. بل لو استعنا بمثله مدداً -وفي هذه الآية التي نبحت عنها فصل ذلك- بسبعة أبحر. فإذن هذه الآية لها شبيه في القرآن الكريم، يبقى أن نقف عند المقصود من كلمات الله تبارك وتعالى واردة في كلا الآيتين.

في سورة الكهف ﴿مَدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ وفي هذه السورة ﴿كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ واحدة أضافها إلى الرب، وواحدة أضافها إلى الله، هذا كله له نكتة ولكننا لسنا بصدد ذلك.

كلمة الله سبحانه وتعالى بتتبع مصاديقها نصل إلى هذه النتيجة: أن المقصود منها هي الأفعال العجيبة، الأفعال المعجزة. ولذا أطلق على المسيح عليه السلام بأنه كلمة الله. فالفعل المعجز العجيب البديع يقال له كلمة، وليس المقصود من كلمات الله تبارك وتعالى المعنى الذي نطلقه على الإنسان عندما نقول تكلم

بكلام، حتى يأتي هنا ذلك النزاع القديم بأن كلام الله حادث أو قديم؟ وما معنى بأن الله سبحانه وتعالى متكلم؟ فالمراد من كلمات الله آياته العجيبة تبارك وتعالى، لا بمعنى الآيات المذكورة في القرآن، وإلا الآيات القرآنية محصورة في عدد معين بين الدفتين، وإنما المقصود بالآيات المعنى اللغوي للآيات، والمعنى العرفي للآيات، أفعاله التي تدل على عظمته وعلى إعجاز خلقه وإبداعه، هذه الكلمات لا نهاية لها.

المفردة الأخرى التي نحتاج للتوقف عندها، أنه يلاحظ في هذه الكلمات الثلاث: شجرة، أقلام، البحر، شجرة مفردة ومنكرة، أقلام جمع، والبحر مفرد معرف ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ﴾ أي: هذه الأقلام تستعين بمداد البحر، فما هو السر في هذا التفريق؟

كلمة شجرة منكرة تنوين تنكير، وهنا تنوين التنكير لا يقصد منه أنه شجرة واحدة، ليس هذا التنوين هو تنوين إفراد حتى يقصد منه أنه شجرة واحدة نأخذ منها أقلام، الأبلغ هنا أن نقول أي شجرة، وليست شجرة معينة، فإننا لا نتكلم عن شجرة معينة، أي شجرة قابلة لأن يؤخذ منها الأقلام فتفي بالغرض، وفي بيان إعجازه كلماته. وعادة الشجرة واحدة كانت أو متعددة لا يؤخذ منها قلم واحد، وإنما يؤخذ منها أقلام.

وباعتبار أن الذي له دور في الإحصاء هو القلم، ليس المهم شجرة واحدة أو أشجار متعددة، فإذا كان هناك قلم واحد، ولم نستطع الإحصاء ربما عدم استطاعتنا للإحصاء لا لأجل عدم انحصار كلام الله، بل لأجل أن قلم واحد لا يكفي، فلذا كان الأنسب أن نجمع الأقلام جمعاً متناهيلاً لا حد له، مهما أتيت بوسائل الحصر لا تستطيع الحصر، وسائل الحصر عبارة عن وسيلتين لا بد أن تكونا معاً، القلم والمداد، فالقلم جمعناه، والبحر الذي يمثل المداد عرفناه تعريف جنس ولا يقصد البحر المعهود تعريف عهد، هذا الجنس حتى لو أتينا له بمشابه وفرضنا وجوده خارجاً، هنا تأتي فكرة سبعة أبحر، خصوصاً إذا حملنا السبعة على الكثرة، لا على خصوصية في عدد السبعة.

فإذن أدوات الحصر كلها مهينة، فعدم التمكن من الحصر والإحصاء لا يكن لنقص في الفاعل، وإنما لارتفاع القابل عن أن نصل إلى كنهه وعدده، فتشير أكثر إلى عظمة الله سبحانه وتعالى.

في بعض الكتب التفسيرية ذكروا لهذه الآية وجه نزول، هناك وجهان في كتب التفسير قد ذكرا:

الوجه الأول: أن هذه الآية نزلت في رجل قال للنبي ﷺ إنك تقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وتقول أيضاً: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾² فنزلت هذه الآية دالة على أنه خير كثير بالنسبة إلى العباد، وأما بالنسبة إلى الله وعلومه فهو قليل.

هذا الوجه تواجهه مشكلة المكي والمدني، ذهب المشهور إلى أن سورة لقمان مكية، والآية الشريفة ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾³ واردة في سورة البقرة، وسورة البقرة بتمامها مدنية، فإذا كانت هذه الآية ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ...﴾ نزلت رداً على من ذكر ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لا يتناسب لأن المفروض أن سورة لقمان مكية ومتقدمة.

نسب إلى ابن عباس أن سورة لقمان مكية إلا هذه الآية، هذه الآية تكون مدنية، لكن على كل تقدير لا يوجد عندنا وجه ودليل قوي يؤكد أن هذا هو وجه النزول، ولو كان هو وجه النزول لا يضر في المعنى الذي استفدناه من الآية، بل يؤكد.

الوجه الثاني: قيل: أن هذه الآية نازلة في اليهود، حيث إنهم قالوا بأن الله تبارك وتعالى ذكر كل شيء في التوراة، ولم يبق شيء لم يذكره، فنزلت هذه الآية لتبين على أن الذي في التوراة بالنسبة إلى كلمات الله ليس إلا قطرة من بحار، وأنزلت هذه الآية.

هذا الوجه أيضاً لم يثبت عندنا بدليل معتبر.

وعلى كل تقدير لا يضر بالمعنى التي لهذه الآية الذي بصدد إفادته، ولا يبعد أن يكون النزول في هذه الآية المباركة هو نزول مقطعي، نحن نعرف في القرآن الكريم يوجد ثلاثة أنحاء النزولات:

النحو الأول: النزول بصورة كاملة، وهذا في الأعم الأغلب في قصار السور، فهي نزلت دفعة واحدة.

النحو الثاني: النزول لآية آية، هناك آيات في القرآن الكريم لها معنى مستقل لسبب من الأسباب بمناسبة تنزل آية واحدة.

² البقرة 269

³ البقرة 269

النحو الثالث: وهو كثير النزول، وهو النزول المقطعي، المقطع الواحد الذي تكون آياته منسجمة فيما بينها تكون نزلت دفعة واحدة، وقد بينا في البحث السياقي في هذه الآيات أن هذه الآية تنسجم انسجاماً كاملاً مع الآيات التي قبلها فلا يبعد حينئذ أن يكون النزول هنا نزولاً مقطعيّاً.

ولا أريد أن أنفي أن النزول المقطعي لا يكون له شأن نزول، النزول المقطعي يكون له شأن نزول في كثير من الأحيان، لكن لابد أن يكون شأن النزول يتناسب مع تمام المقطع، كما في بعض المقاطع المدنية التي تتكلم عدة آيات عن حادثة معينة كمعركة أحد ومعركة حنين ومعركة بدر وعن بعض الوقائع وعن المناقشين إلى آخره، لها شأن نزول ولكن المقطع بتمامه.

فإذا كانت هذه الآية منسجمة مع تمام المقطع يستبعد في العادة أن يكون لها شأن نزول خاص بها، وهذا شأن النزول الذي لم يثبت عندنا.

ثم تختم هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ صفتان من صفاته تبارك وتعالى العزة والحكمة، كلاهما يتناسبان مع ذلك الإعجاز التي أشارت إليه الآية، فلكونه في غاية الرفعة، بل هو منشأ كل رفعة وعزة، فلا حدود لكلماته، ولا يمكن لمن يكتسب العزة منه أن يحيط بكلماته، ومن منطلق حكمته كانت آياته الباهرة وكلماته البديعة لا نهاية لها، فالعزة والحكمة تنسجم مع المعنى الذي ذكرناه في صدر هذه الآية.